مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مركز المخطوطات
Manuscript Center

المخطوطات الموقعة

أعمال المؤتمر الدولي الثاني لمركز المخطوطات (أبريل ٢٠٠٥)

تقديم
أ.د. إسماعيل سراج الدين
مدير مكتبة الإسكندرية

إعداد وتحرير
أ.د. يوسف زيدان
مدير مركز المخطوطات ومتحف المخطوطات

مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٨

102999

التوقيعات على كتاب سيبويه

د. جنفييف أمبير
(فرنسا)
ترجمة/ شيرين محمود

توجد فى كتاب سيبويه أنواع مختلفة من الحواشى، لكنى سأتحدث هنا -فقط- عن مجموعة من الحواشى كَتَبَها نحويون تلقوا العلم فى بغداد، وأعرض أسماءهم فى الجدول التالى :

[سيبويه (ت ١٨٠هـ)]

أبو الحسن الأخفش (ت ٢١٥هـ)

أبو عمر الجرمى (ت ٢١٩هـ) — أبو عثمان المازنى (ت ٢٤٨هـ)

المبرد (ت ٢٨٥هـ)

الزجاج (ت ٣١١هـ) — ابن السراج (ت ٣١٦هـ)

أبو علىّ الفارسى (ت ٣٧٧هـ)

[ابن جِنّى (ت٣٩٢هـ)]

.

.

.

[الزمخشرى (ت٥٣٨هـ)]

ويوضح الجدول، مدى قُرب العلاقة بين هؤلاء الأشخاص. فنرى أن أبا عمر الجرمى وأبا عثمان المازنى، تلميذى الأخفش، كانا من شيوخ المبرِّد الذى كان بدوره شيخًا للزجَّاج وابن السراج، اللذين درَّسا لأبى على الفارسى. ونجد أن كل هؤلاء -باستثناء الأخفش- درسوا النحو فى بغداد. أما فيما يخص ابن جنى والزمخشرى- اللذين وُضع اسماهما بين معقوفين فى الجدول- فهما ليسا من موقِّعى هذه الحواشى، ولكنى أضفت اسميهما لأن ذكرهما سيرد عند حديثى عن نسختيهما من كتاب سيبويه فيما يتعلق بهذه الحواشى. وقد رَبَطَتْ ابن جنى بأبى على الفارسى علاقةُ الشيخ بتلميذه، بينما الزمخشرى هو الوحيد الذى لم يرتبط بالآخرين بعلاقة مباشرة، ويفصله عن ابن

حتى أكثر من مائة عام. ولكن سنرى مدى أهمية دوره فى الحفاظ على الحواشى.

وفيما يتعلق بمحتوى هذه الحواشى، يمكننا التمييز بين ذات المحتوى النحوى، وبين تلك التى سأسميها حواشى العلماء، وبين تلك المتعلقة بمقابلة النُّسَخ. إنَّ الحواشى النحوية، التى عادةً ما تكون نقدية، يمكن أن تتعلق بالمصطلحات الفنية، أو بطريقة العرض وتقسيم الفصول، أو تشير إلى غموض أو لَبْس فى بعض الجمل واقتراح صياغة أفضل. أما حواشى العلماء، فهى تلك التى تذكر آراء أحد الشيوخ، أو تقدم معلومة ما (مثل إضافة كلمة نادرة، أو استثناء على قاعدة، أو عجز بيت لم يذكره سيبويه إلا إلماحًا... إلخ) وهى أقصر من الحواشى النحوية وأكثر اهتمامًا بالنواحى الفنية. أما بالنسبة للحواشى المتعلقة بمقابلة النسخ المخطوطة، فلم يهتم بها إلا عدد قليل من النحويين الذين ذكرنا أسماءهم فى الجدول السابق، وبصفة عامة كانت قصيرة للغاية، وشديدة الاهتمام بالجوانب الفنية. ولكننى لن أتوقف كثيرًا هنا عند محتوى هذه الحواشى، بل سأركز كلامى على وصف الطريقة التى دخلت بها إلى المخطوطات: مَن الذى بدأها، وأية ضرورة دعت إليها. والمصادر التى اعتمدتُ عليها فى الأساس هى مخطوطات الكتاب، وهى حوالى أربعين نسخة ما بين ورقية وميكروفيلمية، من بين النسخ الخطية السبع والسبعين المعروفة حاليًا.

وسوف أبدأ بعرض كيفية دخول هذه الحواشى إلى الكتاب، ثم أحاول بعد ذلك أن أحلل دلالة هذه العملية وتأثيرها فى تاريخ هذا النص.

تاريخ تدوين الحواشى (البغدادية) على كتاب سيبويه :

دخلت هذه الحواشى على الكتاب فى مرحلتين زمنيتين، يفصل بينهما جيلان. المجموعة الأولى أُدخلت، كما أظن، بواسطة المبرد فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، والثانية فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى بواسطة أبى علىٍّ الفارسى. وتشترك كل الحواشى فى صفتين، وهما: أنها موقَّعة، وأن كاتبيها نحاة معروفون. وبالرغم من أن هاتين المجموعتين من الحواشى تم جمعهما بشكل منفصل، إلا أن ما يربط بين موقّعيها، هو أنهم يشكّلون حلقات فى سلسلة متصلة من الرواة؛ فقد تتابعوا من أستاذ لتلميذ على مدار خمسة أجيال .

إن المجموعة الأولى من الحواشى، وهى تلك التى أُدخلت فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، لا تحمل إلا أسماءَ ثلاثةٍ من الرواة الأوائل، وهم أبو الحسن الأخفش، وأبو عمر الجرمى وأبو عثمان المازنى. ويُشار إلى ثلاثتهم بكُناهم؛ فنرى فى الحواشى عبارات "قال أبو الحسن"، أو "قال أبو عمر" أو "قال أبو عثمان". وتشير الدلائل إلى أن هذه الحواشى قد جُمعت على يد المبرد؛ فهو أولاً مذكور فى كل كتب سِـــيَر العلماء التى تذكره على أنه رأس النحو فى بغداد بعد جيل الجرمى والمازنى، وكذلك فإن مخطوط المبرد، يبدو أنه نال حظًا واسعًا من الانتشار؛ فهناك أغلبية ساحقة من مخطوطات الكتاب التالية على المبرد تذكر حواشيه، ولا تخلو حواشى هذه النسخ المخطوطة من رواية مُسنَدةٍ للمبرد ناقلاً عن سيبويه وبإسناد الأخفش والجرمى والمازنى، بما يسمح لنا بالقول إن أسماء الموقعين

الثلاثة تقود بالضرورة إلى المبرد، بل يمكننا أن نقول إن مجموع هذه الحواشى، قد قام بدور سلسلة إسناد شديدة الأهمية بفضل قيمة نسخة المبرد، لدرجةٍ جعلتها تطغى بشكل شبه كامل على غيرها من الروايات، وصارت هى المرجع فى النقل والإسناد. ولنا أن نتساءل عما إذا كان تدوين هذه السلسلة فى مخطوطات الكتاب، هو الذى أدى لشهرة المبرد، أم كانت شهرة المبرد هى السبب فى أهمية هذه السلسلة. كما أنَّ لنا أنْ نتساءل عما إذا كان المبرد قد تعمد تدوين سلسلة الإسناد فى الكتاب بالإضافة إلى مجموع حواشيه .

أيًا كان الأمر، فإن مخطوط المبرد قد نال أهمية فائقة، ولا نعرف إذا ما كانت هذه الأهمية سابقةً، أم تالية لوضعه الحواشى على كتابه. ولا يمكننا إلا أن ندرك أنه فى الوقت الذى استقل فيه النحو كعلم منفصل، وصارت له مكانة كبيرة فى بغداد، استطاع المبرد أن ينال حظوة وتقديرًا فى الدوائر المحيطة بالسلطة، بل ومن الخليفة نفسه. وبدا الأمر وكأنه صار الناقل الرسمى لكتاب سيبويه، ويمكننا القول إن نسخته قامت بدور النموذج الأهم أو الأول، وهو أشبه بدور vulgate وهى الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس التى أُخذت عنها بقية الترجمات.

ومن وجهة النظر العملية، إذا تساءلنا عن السبب وراء الحفاظ على حواشى المبرد لهذه الدرجة، نجد أن أول العوامل التى ساعدت على هذا، هو أنها لم تُكتب على هوامش النص؛ بل فى متنه، حيث إنه من الأصعب على النُسَّاخ تجنُّب نسخ الحواشى التى تشكل إلى حدٍ ما جزءًا من النص، عن تلك المكتوبة فى هوامشه. بالإضافة لذلك، فإن وجود هذه الحواشى فى قلب النص، يجعلنا نفترض أنها تمت على مرحلتين: فلا شك أن المبرد كانت معه فى أول الأمر نسخة وضع حواشيه على هامشها أثناء قراءته للنص وتفكيره فيه. لذلك يجب افتراض وجود نسخة ثانية أُدخلت تلك الحواشى فى متنها، وهى النسخة التى يمكن أن نعتبرها تحريرًا للأولى. والمصادر تشير إلى أنه من الممكن أن يكون أحد الأشخاص قد لعب دور "المحقق" للنسخة التى ظهر فيها النص والحواشى فى صلب المتن لأول مرة. وبالفعل، فإن أبا إسحق الزجاج، أقدم تلاميذ المبرد، كانت لديه -حسبما تقول المصادر- نسخة اعتمد عليها المبرد. وتشير المصادر أيضًا إلى أن المبرد كان يشترط على تلاميذه الذين يريدون قراءة الكتاب عليه أن يقرءوه أولاً على الزجاج. وهذا قد يعنى أن نسخة الزجاج من الكتاب، كانت أكمل وأوضح من نسخة شيخه؛ مما قد يعنى أن الحواشى نُقلت فيها بشكل واضح، وفى المكان الصحيح وفى صلب المتن؛ أى أن نسخة الزجاج كانت أنسب للنشر وللتدريس من نسخة المبرد.

وبهذه الطريقة، استطاع المبرد بمساعدة الزجاج أن يضمن الحفاظ على حواشيه، ويعرض على الجمهور شكلاً جديدًا لنص سيبويه ؛ لم يعد ينفصل عن مجموعة الحواشى التى وقَّع عليها كبار النحويين .

ولكن الشكل الجديد للنص، لا يعنى أن نص سيبويه قد تعرض لتغيير، بل على العكس لقد تم الحفاظ عليه بكل هناته وصعوباته كى يمكن مناقشته أو نقده أو توضيحه. وقد صارت الحواشى تشكل جزءًا من نص الكتاب منذ أن

قام أبو سعيد السيرافى فى كتابه الشهير (شرح كتاب سيبويه) بشرح الحواشى فى سياق شرحه للكتاب. وقد فرض الشكل الجديد للكتاب نفسه لدرجة أن تسعة وتسعين بالمائة من مخطوطات الكتاب المحفوظة ليومنا هذا، تحمل فى طياتها حواشى المبرد.

وقد يكون المبرد هو النموذج الذى اتبعه أبو علىٍّ الفارسى الذى جاء بعده بجيلين، ووضع المجموعة الثانية من الحواشى على مخطوطات الكتاب.

ولكن الحواشى التى جمعها أبو علىٍّ ليست موقَّعة بنفس الشكل الذى نراه فى حواشى المبرد، فهو يشير إلى اسم المؤلف أو المصدر المخطوط الذى نُقلت منه باستخدام رموز، فمثلاً السين تشير إلى التعليقات التى أخذها من النسخة المكتوبة بخط ابن السراج (الذى نسخها من نسخة المبرد). والرمز (عنده) يشير إلى الحواشى التى نقلها أبو على شفاهةً عن ابن السراج. وهناك رمز آخر يشير للحواشى المنقولة عن نسخة المبرد، وآخر يشير لتلك المنقولة من نسخة الزجاج التى انتقل تملُّكها إلى أبى على. كذلك نقل أبو علىّ الحواشى من نسختين مجهولتى النسَّاخ كانت إحداهما فى حوزة حكام بغداد من بنى طاهر. أما حواشى أبى علىّ التى كتبها بنفسه فيسبقها الرمز "فا" (إشارةً للفارسى).

وليس من المستبعد أن يكون أبو علىٍّ قد حاول هو أيضًا إدخال مجموعة حواشيه إلى متن النص. وما يدفعنا للتفكير فى هذا الاحتمال عاملان: أولهما: أننا فى مخطوط الكتاب المحفوظ فى سان بطرسبرج[1]، والذى قُرئ على ابن جنى، تلميذ أبى على الفارسى، نرى كل الحواشى – وهى كثيرة العدد– مدوَّنة فى متن الكتاب. وثانيهما أنه عندما اكتشف الزمخشرى ، بعد مرور أكثر من قرن ، نسختين صُنعتا على نسخة أبى على الفارسى، وقرر أن ينسخ لنفسه نسخة من كتاب سيبويه تتضمن كل الحواشى الموجودة فى النسخ الشهيرة، بدأ بنقل كل الحواشى من المتن إلى الهوامش بما فى ذلك حواشى المبرد، وإن كان لم يلتزم بهذا الأسلوب إلا فى الورقات الأولى فقط، ثم ترك فى باقى النسخة حواشى المبرد داخل المتن، ونقل حواشى غيره إلى الهامش. وأظن أن هذا يمكن أن يُعد الدليل الثانى على أن كل الحواشى، كانت مكتوبة فى متن النص فى النسخ الخطية التى اكتشفها، وأنه سعى إلى ترك مساحة خالية لتسهيل قراءة نص سيبويه، التى أصبحت تمثّل صعوبة بسبب الكم الهائل من الحواشى الموضوعة عليه.

ولكن عَمَلُ أبى علىٍّ لم يلقَ نفس النجاح الذى لقيه عمل المبرد، وكادت حواشيه تضيع لولا الزمخشرى الذى نقلها على نسخته، فحفظها من النسيان. وقد قام الزمخشرى بدوره بإثراء مجموعة الحواشى التى قدمها سابقوه، بأن قام بجمع النسخ الخطية الأشهر فى زمانه. ولكنى لن أتوقف عند كتاب الزمخشرى الذى لم يدرس النحو فى بغداد، و لم يرتبط بالشرَّاح الآخرين ارتباطَ الأستاذ بالطالب، و لم يضع هو نفسُه شروحًا على الكتاب. ولكن من المهم أن نشير

(1) Bibliothèque Saltykova-Schchedrina 161.

إلى أن نسخته من كتاب سيبويه المحفوظة فى مكتبة بلدية تشوروم[1] لم يُعَدْ نسخها حتى القرن الثامن عشر (وهى الفترة التى عاد فيها الاهتمام بصناعة نسخ من الكتاب بعد قرون من الانقطاع) ربما بسبب ضخامة العمل أمام النسَّاخ لكثرة الحواشى التى يجب إدخالها فى مكانها الصحيح وأمام السطر الصحيح وفى شكل طباعة مناسب، أى بهوامش عريضة .

الكتاب والحواشى ، النحو والنحويون :

يمكننا أن نقدم أكثر من تفسير لتلك العناية التى أحاطت بالحفاظ على ذاكرة الحواشى "البغدادية" على كتاب سيبويه. إن أهمية هذه الحواشى هى بالطبع من الناحية النحوية، وذلك لأنها تعكس المناقشات التى صاحبت تطور مفهوم النحو، ووضع المصطلحات الخاصة به. فقد دخلت حواشى المبرد وأبى علىٍّ الفارسى على نص الكتاب فى مرحلة هامة من مراحل تطور النحو. وكان المبرد قد بدأ بالفعل فى نقد بعض النقاط الواردة فى الكتاب، ويُنسب للمبرد -كما نعرف- كتابَ الرد على سيبويه. أما ابن السرَّاج، فقد عرض فى كتابه "الأصول" -وبتأثير من المنطق الأرسطى- إعادةَ صياغةٍ لكتاب سيبويه وإعادة توزيعٍ لأبوابه بشكل مختلف تمامًا. إذن فمن الممكن أن تكون الحواشى قد ساهمت فى توضيح تطور هذا العلم، كما أنها تمثل مخزونًا من المادة العلمية، ينهل منه النحاة عند وضعهم مؤلفاتهم العلمية، وبهذا يمكن اعتبارها ميراثًا علميًا يحرص النحويُّ الحريص على سمعته العلمية أن يرجع إليه كى لا يُعد هاويًا .

ولكن من الممكن أيضًا، أن يكون نحاة بغداد قد اهتموا -من خلال حواشيهم وشروحهم على الكتاب- بالتذكير بأنهم يشكلون صفوة أهل هذا العلم الراقى (النحو). فقد استطاعوا الاطلاع على وثائق فريدة، وأن يصنعوا لأنفسهم نسخًا من نُسخ أشهر الشيوخ، وأن يقرءوها عليهم، وهو ما أعطاهم مكانة متميزة فى أعين معاصريهم. وكانت الحواشى المأخوذة شفاهةً من الشيوخ ذات قيمة أكبر؛ لأن الشارح أخذها بشكل شخصى ومباشر من شيخه. من ناحية أخرى، فإن معظم النحويين فى سلسلة الإسناد التى تصل من الحسن الأخفش حتى أبى علىّ، كانوا قريبين من دوائر السلطة. فمثلاً المازنى، الذى وصل بغداد فى عهد الخليفة المعتصم، كان على صلة بكلٍّ من الواثق والمتوكل فى سامراء. أما المبرد، فقد استُدعى إلى بلاط الخليفة المتوكل الذى جمع فيه الوزير الفتح بن خاقان عددًا كبيرًا من العلماء، ثم وجد المبرد دعمًا من حكام بغداد من بنى طاهر. أما أبو علىٍّ فقد اتصل بعضد الدولة فى حلب.

يتضح إذن أن النحو والكتاب، حظيا بمكانة خاصة فى القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، ربما لأن الكتاب كان أول موسوعة كاملة فى النحو، كعلم لصيق الصلة باللغة العربية، خاصةً أن النحو علم وُلد بعد ظهور الإسلام، لذا فهو مستقل عن الحضارات السابقة. لذلك فإن "قرآن النحو" هذا - كما أُطلق

(1) Çorum, Il Halk Kütüphanesi, Umumi Usul 2562-2565.

عليه أحيانًا – هو منبع علم عربى أصيل، وتؤدى سلسلة إسناده الدورَ ذاته الذى تؤديه سلسلة الإسناد فى علم الحديث تقريبًا. بل قد نذهب للقول إن سلسلة موقِّعى هذه الحواشى تشبه شجرةَ عائلةٍ أرستقراطية، هَمُّها الأكبر هو حفظ وإثراء تراثها العظيم. ومن نظرة نقدية أوسع، يمكن لنا القول إن هذه الحواشى تبرز أهمية النحويين بنفس قدر إبرازها لأهمية النحو، وتبرز أهمية الحواشى بقدر إبرازها أهمية نص سيبويه نفسه. وقد يمكن القول أيضًا إن النحو، على الأقل فى زمن أبى علىّ، قد بدأ يشعر بأنه مهدَّد من قِبَل العلوم المرتبطة بـــ"العلوم اليونانية" .

ختامًا .. أقول إن كون هذه الحواشى تأخذ شكل السلسلة التى لم تتكون بالصدفة، لا ينتقص من أهمية محتواها. ولكن النظر إليها على أنها سلسلة يبرز الاختلافات بينها وبين ما يضيفه العلماء على نسخهم من خلاصة أفكارهم الخاصة أثناء قراءتهم. والاختلاف الأساسى يتمثل فى أن المبرد وأبا على الفارسى أدخلا على الكتاب –فيما يشبه "التحقيق" – مجموعةً من الحواشى التى أفادا فيها من سابقيهما؛ فنرى شيئًا أشبه بالشرح الجماعى الذى دخل على الكتاب بشكل متعمد وكثيف؛ قد يؤدى أحيانًا إلى التشويش على قراءة الكتاب. ومن ناحية أخرى، يبدو أن هذه الحواشى كانت لها وظيفةٌ خاصة؛ وهى نقل سلسلة الإسناد مع مجموع الحواشى. وهذا هو السبب الذى دعانى للاهتمام بما قاله الأستاذ رامى الجمل فى بحثه، خاصةً عندما تكلم عما يمكن أن تمثله هذه الحواشى من مقاطَعة لسير النص أو استحواذٍ عليه .

ولكن ربما كان كتاب سيبويه يمثل حالة خاصة، كما يرى جريجو شولر، لأنه أول نص عربي طويل يُنشر دون المرور عبر الرواية الشفهية. وربما كان شاغل النحويين، هو التشجيع على تناول هذا الكتاب شديد الصعوبة، الذى لم يكن من قبلُ موضوعًا للنقاش من قِبل تعليقات جماعية موازية له. وكأنهم جميعًا حلموا فى وقت واحد أن يكونوا هم مؤلفو الكتاب، وحلموا مرة أخرى أن يضعوا عليه تعليقًا شاملاً .